قضايا دائرية؛ من اللغة والفكر إلى اللغة والمعرفية

Circular issues; from language and thought to language and cognitive

ليلى أبركان*

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

aberk.leyla@gmail.com

تاريخ الإرسال:**13-07-2023** تاريخ القبول: **13-06-2024**

ملخص:

لا تولد العلوم طفرة، وإنما هي مسيرة تواصل واتصال، فبعد أن فعَّلت الأبحاث المعرفية دور الذهن في دراسة اللغة، وتبيَّن أنها إسقاطات لسانية لتصورات ذهنية، وتمثلات دلالية تخضع لخلفية معرفية مشتركة، حينئذ تولَّد العلم الذي يبحث في اللغة ضمن المنظومة الذهنية الشاملة. ولم يكن ذلك التولُّد إلا صورة عن التطور الفكري والعلمي لأبحاث وقضايا استحدث البحث فيها، فاشتغال (**تشومسكي**) مطولا على كيفية نشوء المعرفة اللغوية في ذهن المتكلم، أعاد القضية الفلسفية التي بحثت في علاقة اللغة بالفكر، وبفضل جهود مكثفة، ومرورا بالنَّظرية التوليدية التحويلية أصبح الحديث عن علاقة اللغة بالمعرفية، فغدت اللُّغة فرعا معرفيا ضمن الحقل المعرفي الواسع.

الكلمات المفتاحية: اللغة والفكر، النظرية المعرفية اللسانية، النظرية التوليدية التحويلية، العلوم المعرفية.

Abstract:

Science does not generate a breakthrough, but it is a process of communication and communication. After cognitive research activated the role of the mind in the study of language, and it turned out that it is linguistic projections of mental perceptions and semantic representations subject to a common cognitive background, then the science that searches for language within the mental system was born. That generation was nothing but a picture of the intellectual and scientific development of research and issues in which the research was introduced, so Chomsky worked at length on how linguistic knowledge arises in the mind of the speaker. The relationship of language to knowledge, so language has become a branch of knowledge within the broad field of knowledge.

Keywords: *language and thought, linguistic cognitive theory, generative-transformation theory, cognitive science.*

* **- المؤلف المراسل**

مقدمة:

يبقى ميل الإنسان طبيعيًّا إلى التَّواصل اللُّغوي، لأنه عتبةٌ أساسٌ في خلق كل اتفاقٍ أو تبادلاتٍ أيًّا كان شكلها تحقِّقها الأنا مع الآخر، لذلك لم تكن اللُّغة ظاهرة معزولة مكتفية بذاتها، وإنما هي جزء من منظومة أكبر هي المنظومة الذهنية، إذ يثبت الدرس اللساني المعاصر أن اللغة حقل معرفي ينتمي -لا محالة-إلى الحقل المعرفي الشامل، ويسعى الحقل المعرفي الشامل بكل فروعه إلى كشف خبايا الذهن، من خلال البحث في العمليات اللغوية، وغير اللغوية المعقدة التي تجري على مستواه.

ولكنْ ما علاقة اللُّغة بالتَّصورات الذهنيَّة؟ أو بعبارة أخرى، ما علاقة البحث في اللُّغة بما يجري في الذِّهن. إن هذا التَّساؤل يحيل إلى قضيَّة فلسفيَّة قديمة هي علاقة اللُّغة بالفكر، فكيف تحول البحث في تلك العلاقة من قضية فلسفية إلى أبحاث تضم حقلا معرفيًّا واسعًا موضوع بحثه الذهن؟

1. اللغة والفكر:

أسال البحث في علاقة اللُّغة بالفكر مدادًا كثيرًا منذ نضوجها قضيَّة في جوّ فلسفيّ قديم، ولكنَّ المقام ها هنا لا يبتغي سردًا تاريخيًّا لمسار هذه القضية، وإنمَّا سيكون التَّركيز على أهم التَّصورات الفكريَّة والفلسفيَّة والعلميَّة التي طرقت هذه القضيَّة، ومن ثمَّة تبيِّن أثرها المتميّز في تشكيل رؤى النظريَّة المعرفيَّة.

1.1. الفكر الأرسطي وأثره في قضية (اللغة والفكر):

طُرحت قضيَّة اللغة والفكر قضية فلسفيَّة في الثَّقافة اليونانيَّة، ولعلَّ أهمَّ ما ميَّز البحث فيها الموقف الأرسطيُّ القائم على الفصل بين اللُّغة والفكر، يقول (**أرسطو طاليس**) شارحًا موقفه: «الكلام رمزٌ لما في العقل، والكتابة رمزٌ للكلام، وكما أنَّ حروف الكتابة ليست واحدةً بالنسبة لكلِّ البشر، فكذلك الألفاظ، غير أنَّ المعقولات التي تُعدُّ هذه الألفاظ علاماتٍ مباشرةٍ لها واحدة بالنسبة للجميع، وكذلك الأشياء القائمة في العالم الخارجيّ التي تعد هذه المعقولات صورًا مماثلةً بالنسبة للجميع»[1]. إنَّ التَّصور الأرسطيَّ السَّابق يحدُّ القضيَّة من جهاتٍ ثلاثٍ وهي:

[1]- محي الدين محسن: اللغة والفكر والعالم، دراسة في النسبة اللغوية بين الفرضية والتحقق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 1 (مقدمة الكتاب).

- القول بالفصل بين اللُّغة والفكر.
- تأكيد (**أرسطو**) أسبقيَّة الفكر على اللُّغة، فاللُّغة -حسب رأيه-ما هي إلاَّ صورةٌ للفكر، وما الألفاظُ إلا نواقلٌ لما يجول سابقًا في خواطرنا من أفكار.
- يُرجع (**أرسطو**) تعدُّد الألسنة إلى اختلاف الدَّوال التي تُحيل إلى المراجع (وهي الأشياء ونفسها أو حقائق الأشياء)، بينما يؤكِّد ثباتُ المراجع واحدةً وإن اختلفت الدوال باختلاف الألسنة دليلا على ثبات الفكر بطبيعته الإنسانية.

ولقد سيطرت هذه النَّظرة الأرسطيَّة عقدًا من الزمن بعد أن حصدت لصالحها الكثير من المؤيّدين. ولعلَّ من أهمِّ الآراء التي وافقت آراء (**أرسطو**) تصوُّر (**بوازيه**) للنَّحو العام، وهو عنده «علمٌ استدلاليٌّ يهتم بالمبادئ العامَّة التي لا تتغير للُّغة المنطوقة أو المكتوبة ونتائجها، فهو سابق في وجوده على اللُّغات جميعها؛ لأنَّ مبادئه هي المبادئ نفسها التي توجِّه العقل الإنساني في عملياته الفكريَّة»[2]. فالبحث عن قواعد كليَّة وعامة تحكم اللُّغات جميعا، هو علم سعى (**نحاة بور رويال**) إلى إثباته قبل أن يكون همَّ (**تشومسكي**) في نظريته التوليديَّة التحويليَّة. ولأنَّ اللغات جميعا منطوقةً، أو مكتوبةً تنضوي تحت مبادئ النحو، فإنَّ النَّحو سابقٌ على وجود اللُّغات، ومن خلال متتالية حسابيةٍ يساوي (**بوازيه**) العقل بالنَّحو لاشتراكهما في المبادئ نفسها. إنَّ هذا التَّصور العقليّ للُّغة ما هو إلا إحياءٌ وبعثٌ للرُّوح الفلسفيَّة الأرسطيَّة في القرن الثامن، لتنصهر كل هذه الأفكار في مظهر معاصر تمثِّله النَّظرية التوليديَّة التحويليَّة لـ (**تشومسكي**). غير أنَّ هذا التَّصور القائم على فصل اللُّغة عن الفكر لم يسلم في الوقت نفسه من الانتقادات، فنجد مثلاً في نصِّ المناظرة الشَّهيرة في الدرس اللُّغوي العربي بين (**أبي سعيد السيرافي**)، والمنطقيِّ (**بشر**) نقدًا مباشرًا للفكر الأرسطيِّ، وإن كانت المناظرة لا تحوي موقفًا واضحًا إزاء هذه القضيَّة، إذ يفنِّدُ (**السيرافي**) القول بأسبقيَّة الفكر على اللُّغة، ويعارض (**أرسطو**)، انطلاقا من إدراكه العلاقة بين اللُّغة والفكر، ففكر (**أرسطو**) حَسَبَ (**السيرافي**) بتصوُّراته ومفاهيمه، ولغة (**أرسطو**) بدلالاتها ومصطلحاتها خاضعةٌ للنَّسق الثَّقافي اليونانيّ؛ لذلك لا يقنع رأي (**أرسطو**) البتَّه القائل بطبيعة الفكر الإنسانيَّة، ولا يمكن لفكر اليونان أن يعرض بلغة العرب، ولا بلغة الفرس،

[2]- نعوم تشومسكي: المعرفة اللغوية، ترجمة وتعليق وتقديم: محمد فتيح، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1413هـ، 1993م، ص 51.

يقول (**السيرافي**) «فلماذا يُلْزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتَّخذوه قاضيا»[3]، وهو الرأي ذاته الذي تبنَّاه (**إيميل بينفست**) مصرِّحا، يقول في هذا الصدد: «فمادامت مقولات أرسطو هي مقولات اللُّغة اليونانيَّة، وأنَّ مقولات الفكر هي مقولات اللُّغة؛ فإنَّه بالنتيجة ستكون خاصَّة باليونان فقط»[4]، ويعضد هذا الطَّرح ما قدَّمه بعض العلماء موضِّحين مدى الارتباط الدقيق بين اللُّغة والفكر من خلال المبدأ القائل بأنَّ هناك رابطةً بين التركيب الصرفي والنَّحوي للغة ما، وبين طريقة تفكير المجتمع الذي نتحدَّث بها، فالفلسفة الألمانيَّة على سبيل المثال لا يمكن أن تنتجها لغة أخرى غير الألمانيَّة، فهي الطَّبيعة الخاصة لبنية تلك اللُّغة[5]، فلا يمكن الحديث عن فكر من دون لغةٍ تعطيه مسوِّغات الوجود، ودلائل الحضور، ولا يمكن الإفصاح عن أيَّة تجربة فلسفية أو لغوية، أو غيرها من خلال عنصري الفهم والإفهام بعيدًا عن لَبوسٍ لغويٍّ[6].

2.1. (اللغة والفكر) في الفلسفة الحديثة:

وقد توالت بعد ذلك الكثير من الأبحاث التي تناولت هذه القضية، فكان لجهود (**ويليام فون همبولدت**) مثلاً أثرا كبيرا في تشكيل ما يسمَّى بالنَّظرية "اللُّغوية النسبيَّة"، إذْ يرى أنَّ «التفكير والإدراك لا يمكن أن يحدَّدا وأن يتَّسما بقابلية التَّوصيل إلاَّ من خلال

---

[3]- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1432هـ،2011م، ص 92-94.

[4]- الزاوي بغورة: فلسفة اللغة، نقد المنعطف اللغوي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 25.

[5]- عبد العزيز موافي: الرؤية والعبارة. مدخل إلى فهم الشعر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ص 217، وهناك مبدآن آخران، فالأوَّل هو أنَّ اللُّغة التي لا يتميَّز فيها التركيب الصرفي والنحوي بين الحدث والفاعل والأشياء، فقواعد اللغة الإنجليزية مثلا إنما تشير إلى مجتمع يؤمن بالقدرية دون محاولة لفهم الأسباب والمسببات، وأمَّا الثَّاني، فهو أنَّ اللُّغة التي يلي فيها الموصوف الصفة كالإنجليزية مثلا تطبع تفكير المتحدثين بطابع استدلالي، الصفحة نفسها.

[6]- بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة، بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة، قراءة في التصور التحليلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ، 2010م، ص 13.

اللغة، ومن ثمَّة فاللُّغة والتَّفكير لا يقبلان الانفصال، وليسا مستقلَّيْن»[7]. كما تؤكِّد المدرسةُ النفسيَّة بزعامة (**سكينر**) على تكامل الفكر واللُّغة، وهما عنده سلوكان يتمُّ اكتسابهما معًا، ويستحيل الفصل بينهما، ولا وجود لأحدهما دون وجود الآخر[8]. ولم يكن الحديث في هذه القضيَّة فلسفيًا فحسب، بله إنَّها قضيَّة سياسيَّة كذلك، إذْ تبنَّى (**جورج أورويل**) في مقالتيه "السياسة واللُّغة الإنجليزية" و"العالم الجديد" فكرة أنَّ اللُّغة ولاسيما استعمالُها الفاسد يؤثِّر تأثيرًا بالغًا في الصُّورة التي يفكِّر بها النَّاس[9]، فاللُّغة تفرض على المتكلِّمين بها صورةً معينة من التَّفكير حول العالم[10]. ولقد عزَّزت نظريَّة (**بنيامين لي وورف**) مسار البحث في قضيَّة اللُّغة والفكر، وقدَّمت أبحاثُه طرحًا معاكسا، ونقدا قويًّا في الآن ذاته للطَّرح الأرسطي، فالتَّجربة الذهنيَّة عند (**وورف**) تتشكَّل وفق النَّسق اللُّغوي المعين الذي يُستعمل في مجتمع لغويٍّ معيَّن، وهو ما يطلق عليه بمبدأ الحتميَّة اللُّغوية، ويلخص هذا المبدأ عبارة "اللُّغة تحدِّد الفكر"[11]، فاللُّغة عنده سابقةٌ على الفكر، وهي توجِّهه ليس بسبب مفرداتها، وإنمَّا ببنيتها الدَّاخلية كذلك، وهي بالتَّالي ليست مجرَّد وسيلة للتَّعبير عن الأفكار بقدر ما هي الأفكار ذاتُها[12]

إن تسوية (**وورف**) للصُّورة اللُّغوية بالصُّورة الذِّهنيَّة (الفكر) قد قادته إلى جعل اللُّغة أسبق من الفكر، حيث عزا إليها القدرة الفاعلة فيه، فليست هناك صورة ذهنيَّة، وإنمَّا هي الصورة اللُّغوية التي تشكِّله، وتتمظهر فيه في آنٍ واحدٍ، فَفِكر جماعة لغويَّة معيَّنة تحدِّدُه لغة تلك الجماعة، وسيكون بالطَّبع مغايراً لفكر جماعة لغويَّة أخرى. ثم إنَّ إسقاط (**وورف**) للنَّسق الذِّهني ليس ثورة على أرسطو فحسب، وإنمَّا هي ثورةٌ على التيَّار العقلاني ككل، فـ (**ديكارت**) يرى أنَّ «ما يميِّز اللُّغة عند الإنسان هو ارتباط الفعل اللغويِّ بالعقل،

---

[7]- محي الدين محسن: اللغة والفكر والعالم، دراسة في النسبة اللغوية بين الفرضية والتحقق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص 10.

[8]- عبد العزيز موافي: الرؤية والعبارة، ص 216.

[9]- فليب نيكولاس جونس، ليرد بيتر كاثكارت ميسن: التفكير مطالعات في علم المعرفة، ترجمة: أديب يوسف شيش، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، دط، 2009م، ص 565.

[10]- المرجع نفسه، ص 565 - 566.

[11]- محي الدين محسب: اللغة والفكر والعالم، ص 29.

[12]- عبد العزيز موافي: الرؤية والعبارة، ص 216.

ويرى أنَّها أي اللُّغة تعبّر عن العقل البشرِي في شموليته، وبذلك يشكِّل النَّحو من عدَّة أوجه البناء المنطقيّ العام الذي تُرَدُّ إليه اللُّغة في جميع مظاهرها»[13]، كما يقف رأي (**سابير**) على قدم المساواة مع رأي (**وورف**)، إذْ يرى أنَّ النَّاس يعيشون تحت رحمة اللُّغة التي أصبحت وسيلةً للتَّعبير في مجتمعهم، وأنَّ العالم الحقيقي مبنيٌّ إلى حد كبير على العادات اللُّغوية للمجتمع، كما يؤكِّد أيضا أنَّ اللُّغة هي القبضة الاستبداديَّة التي يمارسها الشَّكل اللُّغوي، فيها تتحدَّد توجُّهاتنا في العالم[14].

إنَّ اتِّفاق النَّظريتين السَّابقتين حول مساواة الصُّورة الذِّهنية باللُّصورة اللُّغوية ليس دليلاً على اتِّفاقهما، فنظرةُ (**وورف**) ترى المساواة من وجهة إلغاءٍ تَّامٍ للصُّورة الذِّهنيَّة، واستيلاءُ الصُّورة اللُّغوية على السَّبق والفاعليَّة، بينما يرى العقلانيُّون المساواة بين الصُّورتين بتحكم الصورة الذهنيَّة في اللُّغوية وتبعيَّة الثَّانية للأولى تيمُّنًا بالطَّرح الأرسطي في هذه القضيَّة، فطبيعة اللُّغة عند (**وورف**) هي «العامل الحاسم الذِّي يحدِّد بطريقة مستبدة قنوات التَّطور؛ وذلك لأنَّها نظامٌ وليست مجموعةً من القواعد»[15] وهي المتحكِّمة في اختلاف الأنساق الذهنيَّة، على خلاف الرؤية الأرسطيَّة التي تؤكِّد أنَّ الأنساق الذهنيَّة عند الجميع، وإنْ اختلفت الصُّورة اللُّغوية باختلاف الجماعات اللُّغوية، وهي رؤيةٌ تتساوق مع الطَّرح الديكارتِّي الذِّي يجمع اللُّغات على الرَّغم من «اختلافها على مستوى القواعد التركيبيَّة، فهي تشترك في كونها تتوافرُ على بنياتٍ منطقيَّة، وعقليَّة مشتركة بين البشر»[16]، وهي ذاتها الأفكار التي تبنَّاها (**تشومسكي**)، وبنى عليها مبادئ ما يعرف بالمدرسة الذهنية.

2. اللغة والمعرفية:

1.2. إرهاصات أولى في البحث المعرفي: النظرية التوليدية التحويلية:

---

[13]- مصطفى غلفان، بمشاركة امحمد الملاخ، حافظ إسماعيل علوي: اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010م، ص 6-8.

[14]- أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط4، 2008م، ص 191.

[15]- مجي الدين محسب: اللغة والفكر والعالم، ص 31-32.

[16]- مصطفى غلفان: اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، ص 7.

يرى **(تشومسكي)** اللغة «تعبيرا منطقيًّا عن الفكر»[17]، وذلك تيمنا بالطرح الديكارتي، والذي يؤكد صاحبه **(رونيه ديكارت)** أن البنيات اللُّغويَّة تتساوق والبنيات المنطقيَّة. فإذا كان الحيوان-حسب رأيه-يشترك مع الإنسان في امتلاكه لجهاز نطقيٍّ، ويشاركه في إطلاق بعض الأصوات، إلاَّ أنَّ القدرة على إنتاج اللُّغة تبقى خصيصةً إنسانيَّة، وميزةً بشريَّة مثلها مثل العقل، إنَّها «وبمعنى مجرَّد عضوٌ ذهنيٌّ»[18] يمثِّل الميزة الفيصلَ في تحديد هويَّة الإنسان، وإبراز خاصيتها الإنسانية كوسيلةٍ حرَّة.

ثمَّ إنَّ عقلنة اللُّغة، والقول بفطريتها جعلا من البحث اللِّسانيّ أكثر تعقيدًا ممَّا كان عليه فيما سبق فقد ألقى العمل اللِّسانيُّ على عاتقه من خلال ما اقترحه **(تشومسكي)** في نظريته التَّوليديَّة التَّحويليَّة مهمَّةً تتجاوز الوصف إلى التَّفسير، «فالقاعدة تفسِّر المعرفة، والمعرفة تجعله قادرًا على إنتاج عددٍ من التَّراكيب ثمَّ تفسيرها بوضوحٍ»[19]، وقد تتجاوز مهمَّته التَّفسير إلى التَّأويل، فالقواعد النَّحوية حسَب التَّحوليِّين قادرةٌ على تأويل الجمل شكلاً ودلالةً، وذلك من خلال التَّمثيلات الذِّهنيَّة في الدِّماغ، فما يتعلَّق بالشَّكل الصوتيّ يفسِّر البنية الصَّوتية، وما يتعلَّق بالشَّكل المنطقيّ يفسِّر البنية الدَّلالية للجمل[20]، وأصبح هدف **(تشومسكي)** وخاصَّة في نظريته النَّموذجية الموسَّعة ربطُ العلاقات اللُّغوية بين المكوِّنات الثلاث الفونولوجي والتركيبي[21] والدَّلالي.

---

[17]- المرجع نفسه، ص 7.

[18]- صابر الحباشة: اللغة والمعرفة، رؤية جديدة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2008، ص 68.

[19]- محمد حماسة عبد اللطيف: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص 39.

[20]- مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سورية، ط1، 1998، ص 66.

[21]- لقد سعت اللسانيات التوليدية إلى إقصاء البناءات من النحو، فبالنسبة إليها تعد البناءات ظواهر عرضية تنتج عن تفاعل مبادئ النحو الكلي، وعلى العكس من ذلك تعد البناءات مركزية في اللسانيات المعرفية، حيث تلعب دورا يضطلع به المكون التركيبي في نظريات أخرى، والدليل على أن البناءات لا تقبل الاختزال إلى مبادئ تركيبية عامة يكمن في كون البناءات يمكن أن تسند معناها الخطاطي لمعنى العبارة التي تحققها. ينظر: جون تايلور: اللسانيات العرفنية واللسانيات المستقلة، ترجمة: محمد الملاخ، مقال مترجم ضمن مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مج3، عدد خاص، 2019، ص 143.

ثم إنَّ إقرار (**تشومسكي**) باستفادته من أبحاث (**بور روايال**) في قضية اللُّغة والفكر قاداه إلى القول بوجود «قواسمَ مشتركةٍ ماديَّة وصوريَّة، أي وجودُ موادٍّ لغويّة، وخصائص شكليَّة مشتركة بين اللُّغات، وإنْ بدت هذه الأخيرة متباعدةً ومختلفة في بنياتها السطحيَّة»[22]. فحديث (**تشومسكي**) كما هو ظاهر لم يكن حديثًا مباشرًا عن طبيعة اللُّغة بالفكر، ولكنَّه أومأ إلى ضرورة البحث في اللُّغة الدَّاخلية بموازاة اللُّغة الخارجيَّة، والتي كانت مجال بحث اللِّسانيّين قبله، فقد رأى وجوب الانتقال من دراسة السُّلوك اللُّغوي، وما ينتج عنه، إلى دراسة أنظمة التَّمثيل الذِّهني[23]، ولأنَّه متشرّبٌ للتيَّار العقلانيّ؛ فإنَّه قد رفض ادعاءات السلوكيَّة التي عدَّت اللُّغة عادةً مكتسبةً، وسلوكًا هو استجابةٌ وردُّ فعلٍ لمؤثرٍ خارجيّ، فتلك الادّعاءات -حسب ما يراها- لم تحسب حسابًا للقدرة التي يملكها الفرد اللُّغوي، والتي تجعله قادراً على إنتاج عدد لا متناهٍ من الجمل، فالكفاءةُ مثلا هي مصطلحٌ متكرّرٌ في كتابه "مظاهر النَّظريَّة التركيبيَّة 1965" تمثِّل نظامًا عقليًّا، ولكنَّه نظامٌ غيرُ قابلٍ للملاحظة، وبالتَّالي يعجز المنهج التجريبيُّ عن دراسته، والسبيلُ الوحيدُ للكشف عن ذلك النِّظام هو الاستبطان إذْ «يساعد الاستبطان على إصدار أحكامٍ على كلّ الجمل من حيث صحتُها النَّحوية ومقبوليتُها»[24]. إنَّ النَّظريَّة التَّوليديَّة التَّحويليَّة تقارب الواقع اللُّغويَّ من حيث هو عملياتٌ معقدةٌ لا مرئية «تشمل على بنياتٍ، ومساراتٍ، وسيروراتٍ، بدءًا من بنيات بسيطة في الكلام، إلى بنياتٍ معقَّدة ومركبَّة»[25]، وهي ضمن هذه التَّصورات تنفتح على «ضربين من القراءة؛ تفسِّر الأُولى اللُّغة من خلال مقولات الطَّبيعة والدِّماغ ...، وأمَّا الثَّانية فإنَّها تفِّسر الوقائع اللُّغوية من خلال مقولات العقل والثَّقافة أو الحريَّة والإبداع، أو التَّوليد

---

[22]- المرجع نفسه: ص7.

[23]- نعوم تشومسكي: اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، ترجمة وتقديم: محمد الرحالي، دار الكتب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 16.

[24]- أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ص 210-211.

[25]- منشورات مختبر العلوم المعرفية: اللغة والمعرفية، بعض مظاهر التفاعل بين المعرفي بين اللسانيات، وعلم النفس، إشراف وتقديم: مصطفى بوعناني، بنعيسى زغبوش، عالم الكتب الحديث، المغرب، ط1، 2015، ص 2.

والتَّحويل»[26]. إنَّ القراءة الأُولى تنظر إلى اللُّغة على أنَّها غريزةٌ فطريَّة أي استعدادٌ بيولوجيٌّ، والذِّي يعرَّف بأنَّه عبارةٌ عن جهازٍ تُكتسب اللُّغة من خلاله، لتمكِّن النَّاطقين بها من التَّواصل بواسطته ضمن الجماعة اللُّغوية الواحدة، وذلك باعتبار اللُّغة تكوينًا بيولوجيًّا، والدِّراسة اللُّغوية جزءٌ لا يتجزأ من العلم الطَّبيعيّ البيولوجيّ، بينما تفسِّر القراءة الثَّانيَّة ما يتفرَّد به الفرد اللُّغوي الممتلك لذلك الجهاز الفطريّ من آلياتٍ يعمل وفقها، كالحدس والإبداع والتَّوليد... وغيرها، وهي مرتكزاتُ النَّظرية التَّوليديَّة التَّحويليَّة.

وفي سياق تركيزه على البحث في العمليَّات الجارية في الدِّماغ، أقام **(تشومسكي)** تحليليه وتفسيره للُّغة اعتمادا على حدس المتكلِّم و«معرفته الضمنيَّة بقواعد لغته»[27]، حيث رأى أنَّ الحدس من المبادئ التي أهملها السُّلوكيُّون، وهذا الإهمال دالٌ على ضعف أبحاثهم؛ لأنَّهم قد أغفلوا جانبًا خلاَّقا من اللُّغة[28]، فالجديد الذي جاء به **(تشومسكي)** قد غيَّر به مسار البحث اللسانيّ، بنظريته التي تُعدُّ «شعاعًا ذهنيًّا على واقع لغويّ عالميّ بخلاف النظريَّة البنويَّة الوصفيَّة التي تعتبر واقعًا حركيًّا قادرا على توليد النظريَّة اللسانيَّة»[29]. كما كانت تلك النظرية ثورة لسانية ثانية أقرت البحث في اللغة جزءا لا يتجزأ من البحث في المنظومة الذهنية، وغدت اللغة فرعا معرفيا فاعلا ومتفاعلا مع غيره في الحقل المعرفي الشامل.

2.2. اللغة والبحث المعرفي:

أثارت قضيَّة اللُّغة والفكر مع الثَّورة اللِّسانية الحديثة بتوجهاتها المتعدِّدة منافذ جديدة للبحث غير التي طرحت ونوقشت من قبل، فصار التَّوجه في هذه القضيَّة بحثا في طبيعة العلاقة بين اللُّغة والفكر، أو بمصطلح لسانيّ جديد بين اللُّغة والتَّصورات الذهنيَّة الحاصلة في الدِّماغ سعيا إلى كشف علاقتها بالإنتاج اللغويّ. فالتَّمثُّلات الدلاليَّة للجمل والأقوال قضايا ذهنيَّة تتكوَّن بفعل عمليةٍ آليةٍ لا واعيةٍ لحلّ التَّرميز اللسانيّ للقول، ومن

---

[26]- حنيفي بن ناصر، مختار لزعر: اللسانيات منطلقاتها النظرية وتعميقاتها المنهجية، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2009م، ص 74.

[27]- المرجع نفسه، ص 64.

[28]- ابتهال محمد البار: مظاهر نظرية التحويل عند تشومسكي في الدرس النحوي العربي، دراسة نظرية تحليلية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، د ط، 2014، ص 18.

[29]- مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، ص 94.

ثمَّة تصلح التَّمثُّلات كخطاطات للفرضيَّات، حيث تساعد على إعادة الشَّكل القضويّ للقول، والذي يستدعي آثارًا سياقيَّة أثناء بنائه أو تداوله. واعتمادًا على تلك الآثار تأتي تفسيرات الشَّكل أو التَّأويل[30]، وهي كلُّها وضعياتٌ معرفيةٌ تبنيها اللُّغة على الوظيفة العلائقيَّة التي تنشؤها مع البنيَّة الذهنيَّة من جهة، والبنيَّة الموضوعيَّة من جهة ثانيةٍ، ففهم الأنساق اللغويَّة على اختلاف أنظمتها يعود إلى البنى المعرفيَّة المنتظمة وفقا لحركة التَّأويل[31].

ومنه نشأ التَّساؤل عن كيفيَّة نشوء المعرفة اللغويَّة في ذهن المتكلِّم، فمن الحديث عن علاقة اللُّغة بالفكر، إلى البحث في تفاعل اللُّغة مع الذِّهن، حيث صارت مهمَّة اللساني الانتقال من العمل في اللُّغة الخارجيَّة إلى البحث في مكامن اللُّغة الداخليَّة، وهذه الأخيرة هي النَّسق اللاَّمرئي، والذِّي يضمُّ تصوُّرات ذهنيَّة، حيث ينبغي على اللِّساني تفسيرها تفسيرًا لغويًّا؛ لأنَّ الوصف لم يعد قادرًا لوحده على تحليل وإبانة القدرة الهائلة التي يحويها المكوِّن اللُّغوي. فالبحث الذهني في اللغة يفترض - كما يقول **(مازن الوعر)**- «أنْ يحدَّدَ المعنى اللُّغوي على أنَّه حدثٌ عقليٌّ متميَّز يتِّصل مباشرة بالنُّطق اللُّغوي، وذلك من خلال نظامٍ متعارفٍ عليه بين المتكلِّم والسَّامع»[32].

وعليه فقد أصبحت اللِّسانيَّات مستعدَّة للبحث فيما أقصاه البنويُّون الوصفيُّون، كما كان **(بلومفيلد)** محقًّا حين أرجأ أمر البحث في الدَّلالة إلى حين تتقدَّم المعرفة الإنسانيَّة أكثر مما هي عليه الآن، ولعلَّه أيقن - وإن لم يصرح بذلك- عجزَ المنهج التجريبيّ في دراسته للغة عامةٍ، وفي الإحاطة بجانبها الدَّلالي على وجه أخصّ. فالظَّفر بأسرار الدَّلالة يتطلَّب مقاربةً ذهنيَّة تتجاوز المنجز من اللغة، لا مقاربة تجريبيَّة تكتفي بالمرئي والظاهر منها. ثم إن تداخلُ الاختصاصات، وطواعيةُ البحث اللغوي وقابليتُه للتَّأثير والتَّأثر جعلاه يقتسم مع مجموعةٍ من العلوم الأخرى الإنسانيَّة منها والعلميَّة مهمة الكشف عن النَّسق الذِّهنيّ،

---

[30]- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص39 [بتصرف].

[31]- منقور عبد الجليل: النص والتأويل دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 2010، ص22.

[32]- مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، ص 72.

والبحث عن ما يعتريه من إلغازٍوغموض. ولأنَّ مكانة اللُّغة في البحث المعرفيّ فاعلةٌ بامتيازٍ، فهي تمثِّل دور الوسيط بين العالم الدَّاخلي للفرد، وبين عالمه الخارجيّ[33]، فقد وُضعت العلوم المعرفية، وأفادت الكثير -بفضل اللسانيات المعرفيَّة- في التَّوصل إلى كشف مكامن الذِّهن.

لقد أعادت اللسانيات المعرفية إلى جانب العلوم المعرفيَّة الأخرى فلسفة "علاقة اللغة بالفكر"، وعزَّزت ارتباط الأثر اللغويّ بسياقاته، ووثَّقت صلة البحث في الذِّهن بالجسد، وكل هذه التَّعالقات تزيد الطين بلةً؛ إذ تَصْعُب عمليَّة القبض على المعاني والمقاصد، فلم يعد النَّص طاقةً إنتاجية للمعنى فحسب، ولا مركز عملٍ، وإنَّما هو حاملٌ لمعنى مُصْمَتٍ، «وللسيَّاق وحده القدرة على تكييف معطيات النَّص مع مقاصد تُجيزها أو تستنكرها الخبرة المشتركة بين المنتمين إلى الحقل الثَّقافي نفسه»[34].

3. خاتمة:

ممَّا سبق نقف على أنَّ البحث في علاقة اللُّغة بالفكر ظهر قضيَّة فلسفيَّة تحاول الإحاطة بالعلاقة بينهما، ونمت كذلك حينًا من الزَّمن، ثمَّ وبفعل التَّطور العلميّ تحوَّلت إلى قضيَّة علميَّة تبحث في طبيعة العلاقة بين اللُّغة والعمليَّات الحاصلة في الدِّماغ، لتستقرَّ بفضل تطوُّر المعرفة، وتلاقح العلوم المعرفيَّة إلى نظريَّة معرفيَّة تسعى إلى دراسة النِّظام الذِّهني البشريّ، وتفسيره تفسيرًا لغويًّا، وهي المهمَّة الموكلة إلى الدِّراسات اللِّسانيَّة الحديثة. التي تشتغل على اللُّغة الدَّاخلية (الذهنية) باعتبارها تصوُّرات حاصلةٍ في الذِّهن، وهو المجال الذي انطلقت منه جهود (**تشومسكي**) من خلال أبحاثٍ لغويَّة متواترةٍ شكَّلت مبادئ المدرسة الذهنيَّة، أو ما يعرف في الدراسات اللسانية بـ "النظرية التوليدية التحويلية".

---

[33]- منشورات مختبر العلوم المعرفية: اللغة والمعرفية، ص 7.

[34]- سعيد بنكراد: سيميائية النص، مراتب المعنى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1439هـ، 2018م، ص 41.

المراجع:

1. ابتهال محمد البار: مظاهر نظرية التحويل عند تشومسكي في الدرس النحوي العربي، دراسة نظرية تحليلية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، د ط، 2014.
2. أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1432هـ،2011م.
3. أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط4، 2008م.
4. بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة، بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة، قراءة في التصور التحليلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ، 2010م.

5. جون تايلور: اللسانيات العرفنية واللسانيات المستقلة، ترجمة: محمد الملاخ، مقال مترجم ضمن مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مج3، عدد خاص، 2019.
6. حنيفي بن ناصر، مختار لزعر: اللسانيات منطلقاتها النظرية وتعميقاتها المنهجية، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2009م.
7. الزاوي بغورة: فلسفة اللغة، نقد المنعطف اللغوي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
8. سعيد بنكراد: سيميائية النص، مراتب المعنى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1439هـ، 2018م،
9. صابر الحباشة: اللغة والمعرفة، رؤية جديدة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2008.
10. عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.
11. عبد العزيز موافي: الرؤية والعبارة. مدخل إلى فهم الشعر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2008م.
12. فليب نيكولاس جونس، ليرد بيتر كاثكارت ميسن: التفكير مطالعات في علم المعرفة، ترجمة: أديب يوسف شيش، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، دط، 2009م.
13. مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سورية، ط1، 1998.
14. محمد حماسة عبد اللطيف: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.
15. محي الدين محسن: اللغة والفكر والعالم، دراسة في النسبة اللغوية بين الفرضية والتحقق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
16. مصطفى غلفان، بمشاركة امحمد الملاخ، حافظ إسماعيل علوي: اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010م.

17. منشورات مختبر العلوم المعرفية: اللغة والمعرفية، بعض مظاهر التفاعل بين المعرفي بين اللسانيات، وعلم النفس، إشراف وتقديم: مصطفى بوعناني، بنعيسى زغبوش، عالم الكتب الحديث، المغرب، ط1، 2015.
18. منقور عبد الجليل: النص والتأويل دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 2010.
19. نعوم تشومسكي: اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، ترجمة وتقديم: محمد الرحالي، دار الكتب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
20. نعوم تشومسكي: المعرفة اللغوية، ترجمة وتعليق وتقديم: محمد فتيح، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1413هـ، 1993م.